أشهر الحج .. والقيم الإنسانية

*الشيخ حسين كوراني

يكشف التأمل في روايات الحج أن لأشهر الحج شخصية واحدة، تقتضي الحديث عنها وعن الحج مع بداية شهر شوال لتكون الفترة الفاصلة مابين أول شهر شوال واليوم التاسع من ذي الحجة – أخر فرصة للإحرام والبدء بمناسك الحجة- متسعاً من الوقت كافياً للحث والإعداد لتلبية دعوة هذه الضيافة الإلهية الأخص.

لذلك جاءت بسملة هذا العدد حول أشهر الحج.

بعد شهر رمضان والضيافة الإلهية الخاصة فيه، يبدأ موسم ضيافة إلهية أشد خصوصية وأوسع زماناً، وأرحب آفاقاً. تشمل رياضاتها الروحية التدريب على تروك تفوق بكثير تروك الصائم. وتندرج فيها من مقدمات التدريب الجهادي مالا تتضمنه ضيافة الصوم إلا من خلال الدعاء بالتوفيق له.

إنه موسم أشهر الحج: شوال وذي القعدة، وذي الحجة.

ومن أبرز نصوص الترابط بين الموسمين:

أن " وفد الحاج" يكتب في ليلة القدر. أي أن أسماء الوافدين إلى بيت الله الحرام في كل سنة يتم اختيارها وكتابتها في هذه الليلة المباركة.

وأن دعاء "الإفتتاح" الذي يتلى كل ليلة من ليالي شهر رمضان يتضمن هذه الفقرة: " **وليلةَ القدر، وحج بيتك الحرام، وقتلاً في سبيلك فوفق لنا**".

بالإضافة إلى وفرة ذكر الحج في أدعية شهر رمضان عموماً.

ويشترك الموسمان في أن كلاً منهما ضيافة. من النصوص حول أن الحجاج ضيوف الله تعالى:

" **مما أوحى الله إلى آدم عليه السلام: أنا الله ذو بكة، أهلها جيرتي، وزوارها وفدي وأضيافي..**".

وعن الإمام الصادق عليه السلام: إن ضيف الله عز وجل رجل حج واعتمر، فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله.

ورغم أن الضيافتين معاً عنده سبحانه وبين يديه بخصوصية تمتازان بها عن الضيافة العامة الدائمة في محضره جلت قدرته، فإنهما تفترقان في أن ضيافة شهر رمضان تتم في بيوتنا– التي هي بيوته ومنه وإليه خولناها ردحاً من الزمن– بينما تتم ضيافة الحج في بيته الحرام "**أول بيت وضع للناس**"**مثابةً** (يرجعون إليه بعد التفرق) **وأمناً**.

ولئن كان السفر مانعاً من الصوم فلا تتحقق معه الضيافة بتمامها، فإن السفر شرط في ضيافة الحج.

ويتلازم ذلك مع اختلاف في البعد الإجتماعي المشترك بين الضيافتين، فهو– البعد الإجتماعي– في الصوم يتحقق بالتواصل بين أهل كل منطقة في منطقتهم، والتراحم ومجالس الذكر والعبادة، إلا أن البعد الإجتماعي في الحج أوسع من كل الدوائر القطرية.

طبيعة عالمية الحج: اجتماع الحجاج من كل العالم في قطر خاص حيث بدأ دحو الأرض، وتكوينُ الأسرة العالمية الواحدة.

وطبيعة عالمية الصوم: قطرية الضيافة العالمية.

إنهما مرحلتان في بعد اجتماعي واحد، وهذه مدخلٌ أفضل إلى تلك.

وعنوان هذا البعد الإجتماعي: **ليجد الغني مس الجوع فيرق على الضعيف ويرحم الجائع الفقير**" وهو

مقدمة لمرحلة أسمى: "ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات".
الصوم تدريب على الخروج من غمرات "الإنعزال" والفردية، وتدريب على لين القلب وحمل هم الأخ في الدين والأخ في الخلق، والدعاء للمؤمن، بل ولغير المؤمن بالهداية إلى الحق، على أقل تقدير.
والحج كذلك لكن بدرجات شديدة جداً، تتوقف على دورة الصوم التدريبية والنوعية.
وليس البعد الإجتماعي في الصوم ثم الأدق منه في أشهر الحج هدفاً نهائياً، رغم كونه هدفاً موضوعياً بالغ السمو. إن الهدف الأسمى منه هو "القلب" الذي هو حرم الله" فلا تُسكن في حرم الله غير الله.
وحيث إن الفائدة تعود للإنسان وحده، فالهدف النهائي إذاً هومعرفة الحق تعالى. أو فقل: صلاح القلب بمعرفة الحق.
وصلاح القلب تعبير آخر عن إنسانية الإنسان، وحفظ هذه الجوهرة سليمة من الشوائب أو والتشويه فالمسخ.
يبدأ الإنسان رحلة الحياة بقلب سليم وفطرة إنسانية نقية، وتبدأ تعلقات القلب تطبع إنسانيته بطابعها.
بمقدار ماتكون ميول القلب وتعلقاته، في خط العقل، تكون سلامة الإنسان.
لذلك تمس الحاجة إلى تذكير هذا القلب بضرورة التفريق بين التعلقات السليمة و تلك الضارة.
بين التعلقات التي تخدم إنسانيته، والتعلقات التي تستخدم إنسانيته، وتستعبدها وتصادرها.
تمس الحاجة إلى تذكير الإنسان بالتفريق بين الشهوات الحلال والشهوات الحرام، وأن القوة الشهوية واحدة، فإن استرسل في حلالها حملته مرغماً إلى الحرام. ثم شكلت عاملاً مساعداً للهوى الحرام والرغبات والشهوات الحرام لتستعبده وتصادر سر إنسانيته وهو العقل.
يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **كم من عقل أسير تحت هوىً أمير**. أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. يأتي موسم ضيافة الصوم ليعزز عقل الإنسان ويفك أسره ليرجع إلى إمارته فتنتظم الميول والأهواء في خطه.
ويأتي موسم أشهر الحج ليبني على نتائج الصوم، ويرفع من مستوى التدريب فإذا التروك في الحج أكثر مما هي في الصوم بكثير. ولئن كان الصوم انتزاعاً للصائم من عاداته في المأكل والمشرب وما شابههما، فإن الحج انتزاع له من كل مايحيط به ويعتاده وصولاً إلى الثياب التي حرص على التأنق فيها، ليدخل الضيافة بثوبي إحرام يذكران بالكفن، لباس السفر الطويل إلى محكمة العدل الإلهي.
روح ضيافتي الصوم والحج صيانة إنسانية الإنسان من التشييء، أي تحويل الشهوات الإنسان إلى شيء، الذي هو بدوره أخطر من تحويل الإنسان إلى حيوان. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. الأضلون سبيلاً هم الذين فقدوا كل مايرتبط بالروح فتحولوا إلى "أشياء" لاعلاقة لها بالإنسان والإنسانية. "أوَ من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. كذلك زُين للكافرين ماكانوا يعملون".
والضيافتان بعد لدى التدقيق وجهان لحقيقة واحدة، تُتلقى الدروس النظرية فيها في شهر رمضان، أما الدروس العملية ففي أشهر الحج.
يؤكد ماتقدم أن التضحية العملية التي تشير إليها "الأضحية" في الحج، ترد كمطلب نظري في أدعية شهر رمضان بإلحاح، وكما يتلازم التوفيق للتضحية "القتل في سبيل الله تعالى" مع التظاهر والتعبير عن البراءة من الظلم والظالمين بالفعل بعد القول، يتلازم مسار التعبير عن التضحية بالأضحية مع "التظاهر" فإذا بأفواج الحجيج مظاهرات تتجه إلى "الرجم" ثم تتموضع في "معسكراتها" استعداداً لجولات قادمة.
وتنتظم جميع هذه المراسم العبادية التدريبية في سياق "الأسرة البشرية الواحدة" وهو مفهوم أرقى بكثير من مفهوم "العولمة" الحق فضلاً عن هذه "المدعاة" التي يرج لها الغزو الثقافي اليوم.